هوامش

مميّزة هي البيوت القديمة في تونس، أو «الديار العربي»، وتعكس بطابعها المعماري بعضاً من تراث البلاد. لكن في الوقت الحالي، حلّت العمارات والبيوت ذات الطابع الحديث مكانها

بيوت تونس القديمة الرئيسية (Getty)

الديار العربي

إرث الأجداد في تونس

تونس ـ **مريم الناصري**

البيوت القديمة في تونس تُسمى «الديار العربي»، تتألف من غرف عدة تتوسطها ساحة كبيرة هي «وسط الدار»، التي تكون فسحة للبيت تسمح بدخول الهواء وأشعة الشمس. لا تختلف كثيراً عن الطراز المعماري للبيوت في بعض الدول العربية الأخرى، ومنها بيوت العاصمة السورية دمشق، لكنّها تختلف فقط في المواد المستخدمة للبناء والزينة. تتميز تلك البيوت بالقرميد والسيراميك الذي يزين الجدران وسط الدار. وغالباً ما تكون الأسقف مقوسة ومزخرفة برسوم من الطبيعة والألوان والخط العربي. كما يُستخدم الطلاء الزجاجي على الأرضية ويكون مزخرفاً بأشكال عدة. لكن منذ تسعينيات القرن الماضي، تغيّرت الثقافة المعمارية في البلاد، وبات معظم التونسيين يشيدون بيوتاً على الطراز الغربي أو يقطنون شققاً في عمارات. على الرغم من ذلك، تحافظ غالبية العائلات التونسية على ما ورثته من بيوت قديمة في المدن العتيقة، على غرار العاصمة وسوسة ونابل وبنزرت وغيرها. بعض تلك العائلات ما زالت تقطن فيها، فيما حوّلها البعض إلى مقاه أو دور ثقافة. عائلات أخرى اختارت إغلاقها وترميمها باستمرار والاعتناء بأثاثها للحفاظ على التراث المعماري الذي يعكس تفاصيل حياة التونسيين خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي. كما برزت هذه البيوت في الأفلام والدراما التونسية، التي جسّدت عادات وتقاليد التونسيين.

في هذا السياق، يقول صاحب أحد البيوت القديمة وعضو جمعية صيانة مدينة بابل أنور المرزوقي، لـ«العربي الجديد»، إنه ورث منزله عن جده، ولم يفكر في بيعه يوماً على الرغم من أنه لا يقطن فيه حالياً. هذا البيت يذكّره بجدته ووالديه وطفولته التي قضاها فيه لأكثر من 15 عاماً. كما حافظ على كل الأثاث القديم، وخصوصاً أن بعض القطع تعد نادرة وتباع في أسواق الأنتيكا بأثمان باهظة. حافظ على ترتيبها وموقعها في كلّ ركن. ولم يكتف بترميم جدران البيت، بل حرص على إعادة رسم الزخارف وتلوينها كجزء من الترميم من دون تغيير أي تفصيل. وعادة ما تكون أبواب تلك البيوت القديمة كبيرة الحجم، تتوسطها فتحة صغيرة تسمى «خوخة» لدخول وخروج الأشخاص. وغالباً ما تلون تلك الأبواب بالأزرق أو الأصفر أو الأخضر، وتزود بقطعة حديد تسمى «طقطوقة» للطرق عليها. ولشدة تميّزها، عمد أصحاب البيوت إلى الحفاظ على شكلها حتى في حال الاضطرار إلى صنع باب جديد للبيت، فكل شيء يعاد كما كان. لدى الدخول إلى أحد تلك البيوت، تجد نفسك أولاً في غرفة تُعرف بـ«السقيفة»، حيث ينتظر الضيوف قبل أن يُؤذن لهم بالدخول إلى غرفة الاستقبال، وذلك بعد التأكد من حجب النساء في غرفهن. وتحتوي تلك البيوت القديمة عادة على غرفتين للاستضافة، واحدة للنساء وأخرى للرجال.

وفي تلك البيوت بئر تُستعمل مياهه للغسيل والتنظيف والشرب، ولم تكن غالبيتها مزودة بقنوات مياه صالحة للشرب. وعلى الرغم من وجود قنوات للتزود بالمياه اليوم، إلا أنّ أصحابها لم يردموا الآبار. في أحد البيوت القديمة في مدينة بنزرت، الذي يعود إلى ستينيات القرن الماضي، كل شيء قديم، كجهاز الراديو والهاتف والستائر والأثاث والمفارش وغيرها، وكلها مرتبة بعناية فائقة ولا غبار في المكان، على الرغم من أن المنزل لا يقطنه أحد. في هذا السياق، يقول صاحب المنزل عبد الحميد السليماني، إنه وزوجته يفتحان البيت كل أسبوع من أجل التهوئة، وينظفانه من الغبار ويتفقدان أثاثه. كما أنّه يحرص وأشقاؤه على ترميمه وإعادة طلائه وإصلاح أي تشققات في سقفه وجدرانه من وقت إلى آخر. يضيف أنه في بعض الأحيان، «تجتمع عائلتنا فيه أو تُقام حفلات زفاف الأقارب». كما تمّ استعمال بيته لتمثيل بعض المسلسلات التونسية والأفلام القديمة. وعلى الرغم من الإغراءات التي عرضت عليه لبيع المنزل، إلا أنه لم يفكر في ذلك يوماً.

ويؤكد عبد الحميد أنه خلال ترميم المنزل، يحرص على استخدام المواد نفسها التي كان قد شيد بها، للحفاظ عليه وعدم تشويهه. صحيح أن السيراميك الذي كان يستخدم في الماضي وغيره من المواد لم تعد متوفرة بالجودة نفسها، إلا أنه يتوخى الحذر للحفاظ على شكل البيت كما هو. تجدر الإشارة إلى أنه في المدن العتيقة تولت الدولة الحفاظ على جزء كبير من هذه البيوت. ويتولى المعهد الوطني لحماية التراث ترميمها باستمرار، ليتحوّل بعضها إلى متاحف أو دور عروض فنية، تحكي بعضاً من تاريخ المدن القديمة.

باختصار

تتميز تلك البيوت بالقرميد والسيراميك الذي يزين الجدران وسط الدار. وغالباً ما تكون الأسقف مقوسة ومزخرفة برسوم من الطبيعة والألوان والخط العربي

■■■

في المدن العتيقة تولت الدولة الحفاظ على جزء كبير من هذه البيوت. ويتولى المعهد الوطني لحماية التراث ترميمها باستمرار، ليتحوّل بعضها إلى متاحف أو دور عروض فنية

وأخيراً

دعونا نستمتع بالجمال

رشا عمران

كنت، قبل أيام، لدى مصفّف الشعر، المصري الذي عادة ما أتبادل معه أحاديث السياسة والوضع العام خلال المدة التي أقضيها ورأسي بين يديه، عن سورية وتطورات أوضاعها، والمقارنة مع مصر، وشعورهم تجاه السوريين وتجاه ما يحدث، وما فعلته الثورات العربية ببلادنا، (كغالبية أصحاب المهن الحرّة، المشغولين بمهنهم فقط والمتأثرين بالإعلام وخطابه). لم يكن من مؤيّدي الثورات، على الرغم من قناعته بأن ظلماً يلحق بشعوبنا، لكنه من المعتقدين أننا، نحن العرب، «لا نستحق أفضل مما نحن فيه». وهذا بالمناسبة خطاب نسبة كبيرة من العرب، تعود أصوله النفسية إلى آلية دفاع ذاتية، حين يعجز صاحبها عن استيعاب ما يحدث حوله، ولا يريد إشغال تفكيره بما يلهيه عن عمله الأساسي، عدا عن أن مصلحته الشخصية، عاملاً حرّاً، مرتبطة بالاستقرار، وهو الأمر الذي خلخله الربيع العربي تماماً.

قبل أيام، ورأسي بين يديه كالعادة، أعاد أسئلته عن سورية وما يحدث فيها، و«انتصار الجيش السوري على الإرهابيين أخيراً»، وأخبار كورونا طبعاً، لم أكن متحمّسة للحديث كالعادة، ولا لمحاولة إفهامه حقيقة وضع «الانتصار» الوهمي الذي يتحدّث عنه. ولم أشعر بأنني معنية بتغيير رأيه عن «الجيش ورئيسه المجاهد». تحدثت قليلاً عن وضع كورونا مع السوريين وصمتّ. لم يخف استغرابه من قلة حماسي، وقال: «يبدو أن كورونا قد أنستك السياسة، وهذا أفضل، إذ إن وجهك الآن أكثر هدوءاً ورونقاً مما كان في السابق، الحماس السياسي يخفي الجمال»!

لفتتني جملته هذه جداً، واستوقفني معناها الذي لا أعتقد أنه كان يقصده، إلا بما هو مجاملة معتادة من مصفّفي الشعر، واستعدته هذه الأيام مع زيارة الرئيس الفرنسي، ماكرون، منزل السيدة فيروز، ومنحها وسام الشرف الفرنسي، واستقبالها له «كملكة» في منزلها وثيابها البسيطة، وما رافق تلك الزيارة من آراء مرحّبة ومضادّة وشتائم لفيروز وإساءات لها، واستهزاء من كل شيء، بدءاً من مسكنها وصولاً إلى أيقنة عرب كثيرين لها. والذريعة دائماً وأبداً للرفض والشتائم والاستهزاء أنها لم تعطِ رأياً بالربيع العربي، ولم تتحدّث عن ضحايا الأنظمة، ولم تلقِ بياناً عن انفجار مرفأ بيروت. عدا عن الذين اعتبروها تتحالف مع «المحتل» الفرنسي وتسلمه مفاتيح لبنان، في استعادةٍ لسردية الجنرال غورو. وعدا، أيضاً، عن تصريحاتٍ عن تأييدها بشار الأسد وحزب الله في حربهما ضد السوريين. قال ذلك ابنها زياد، ثم نفته ابنتها ريما (المتحدثة باسمها) لاحقاً. للأسف، ظهرت مجدّداً كل المكارثية التي وسمت ثورات الربيع العربي، مع صورة فيروز في بيتها وهي تستقبل ماكرون، وتقف على مسافة منه، كما عادتها في المحافظة على المسافة مع الجميع، المسافة التي لم تستثن منها أحداً، لا رئيس دولة ولا ملكاً ولا مسؤولاً ولا كاتباً ولا صحافياً ولا أحداً. ظلت فيروز، طوال تاريخها الفني الطويل، تحيط نفسها بهالة، على الرغم من أنها أبعدتها عن الحياة الحقيقية، وأدخلتها في مصافّ الملائكة (شخصياً لا أفضّل الملائكة)، لكنها حمتها من التهافت والسقوط في فخّ الأنظمة العربية الاستبدادية التي استثمرت أهم الرموز الفنية والثقافية العربية لصالح تبييض صورتها.

لا ريب أن غالبية المحتجين على فيروز يأتي احتجاجهم من منطقة الحماس والتفاعل السياسي مع الأحداث التي تعصف بعالمنا العربي منذ عشر سنوات، غير أنه لا يمكنني أن أفهم كيف يمكن لمثقف مثلاً أن يصرّح بأن فيروز تافهة، أو لآخر أن يقول إنه لم يعد يحتمل أن يستمع إليها، لأنها لم تعلن موقفاً ضد النظام السوري. أنا وكثيرون غيري، ممن كنا نرى في فيروز حالةً استثنائية، تغير وعينا ومزاجنا الفني مع التقدّم في السن. وهذا طبيعي بل ومطلوب، لكن هذا التغير لا يرتبط بأي حال بصمت فيروز عن أحداث الربيع العربي، ولا يغير أيضاً من قيمة فيروز واستثناء صوتها، ولم يحجُب تفاعلنا مع الربيع العربي، ولا حماسنا ضد أنظمة الاستبداد والإجرام جمال صوت فيروز، ولا جمال موسيقا زياد الرحباني، ولا متعة قراءة قصائد لشعراء صمتوا عن قول أي شيءٍ يختصّ بما حدث خلال العقد الماضي. نحن حتماً لا نحترم موقفهم الأخلاقي، ولا صمتهم، ولا نوافق على أيقنتهم، لكن التحلّي ببعض الموضوعية أمر أخلاقي أيضاً، تقدير القيمة الفنية والثقافية لأصحاب القيمة أمر أخلاقي، بعيداً عن فكرة الأيقنة التي ليست أيضاً سوى هروب من استحقاقات المواقف المطلوبة. نتفهّم حماس أولئك، لكن نرجوكم: دعونا ننحّي الحماس قليلاً، لنرى الجمال الذي لم يتبق لنا غيره يعيننا على ما نحن فيه.

> ظهرت مجدّداً كل المكارثية التي وسمت ثورات الربيع العربي، مع صورة فيروز في بيتها وهي تستقبل ماكرون

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**